النية الصادقة، وعطاياها المدهشة

صدق النية، وحسن القصد عبادة جليلة القدر، عظيمة الأجر، بركاتها مدهشة، وثمراتها مذهلة، من هُدي لها فقد أخذ من التوفيق بنصيب وافر.

فمن أراد البركات أن تساق له سوقاً؛ وابتغى الخيرات أن تصب عليه صبّاً، فليعلم الله في قلبه صدقَ النية، فيجزل الله له العطاء، ويحسن له الجزاء؛ كما قال الله ﷻ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

علّق الشيخ ابن عثيمين على الآية فقال: «متى علم الله في قلب الإنسان خيراً آتاه الخير؛ فأصلح قلبك فيما بينك وبين الله تجد الخيرَ كلّه»[(١)].

ولما علم الله ﷻ في نفوس الصحابة صدق النية والإيمان أنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

(١) تفسير القرآن من سورة الحجرات إلى الحديد (ص٤١١).

وقد كان الإمام أحمد ينهى أن يُكتب عنه كلامُه ومسائلُه، فما الذي حدث بعد ذلك؟

يجيب ابن الجوزي فيقول: «فنظر الله تعالى إلى حسن قصده، فنُقلت ألفاظه وحُفظت، فقلَّ أن تقع مسألةٌ إلا وله فيها نصٌّ من الفروع والأصول، وربما عُدمت في تلك المسألة نصوصُ الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا»(١).

وقد توفي العلامة عبد الرحمٰن المعلمي عام ١٣٨٦هـ، وقد خلَّف مؤلفاتٍ تحوي علماً غزيراً تصل إلى (١٢٠) مؤلفاً، ولم يطبع منها في حياته إلا القليل، وكان يقول: «إذا رأى الله ﷻ فيها إفادة، فسيأتي الله بمن يطبعها»(٢).

فسخَّر الله لها في زماننا هذا ثلةً من خيرة المحققين والباحثين(٣)، فعنوا بجمعها وتحقيقها على مدى عشرة أعوام، فخرجت مطبوعة عام ١٤٣٤هـ في أحسن صورة، وأجمل حُلَّة في (٢٥) مجلداً.

وكذلك مُؤلَّف: «أذكار طرفي النهار» للعلامة بكر أبو زيد؛ إنما ألفه في الأصل لوالدته(٤)، فانتشر انتشاراً عجيباً؛

(١) مناقب الإمام أحمد (ص٢٦١).
(٢) المدخل إلى آثار العلامة المعلمي، للشيخ علي العمران (ص١٢٦).
(٣) وعلى رأسهم الشيخ الفاضل علي العمران، والشيخ محمد عزير شمس، والشيخ محمد أجمل الإصلاحي.
(٤) سيرة الشيخ بكر أبو زيد لمؤلفها: صالح آل داود (ص٣٨).

فطبع منه المكتب التعاوني بالزلفي عشرات الملايين من النسخ[١]!

وبهذا تتأكد كلمة الإمام أحمد: وقد سئل: «بم بلغ القوم حتى مُدحوا؟»، قال: «بالصدق»[٢].

وإن صدق النية لهو من أعظم الأسباب التي تدرء المخاطر، وتدفع المكايد، وفي قصة يوسف عليه السلام شاهدٌ على ذلك؛ فقد أجمع إخوته أمرهم، فكادوا له، وهموا بقتله، واجتهدوا في تغييبه عن أبيهم، وكان يوسف عليه السلام غافلاً عنهم لا يناوئهم ولا يكايدهم، فماذا كان؟

كانت العاقبة ليوسف من أحسن ما يذكر في جمال العواقب، فكان يوسفَ النبي، وأوتي الملك، ولقب بالصدِّيق، وجاءه إخوته نادمين تائبين معتذرين، ورفع أبويه على العرش، وخرُّوا له سجَّداً.

وقد لخص المشهدَ شيخ الإسلام ابنُ تيمية، فقال معلقاً على قصة يوسف: «من اتقى الله بصدق وعدل، ولم يتعدَّ حدود الله، وصبر على أذى الآخر وظلمه لم يضرّه كيد الآخر؛ بل ينصره الله عليه»[٣].

---

(١) أفادني بذلك مدير المكتب الشيخ الفاضل سليمان الخنيني، وقد كانت الطباعة للأذكار فقط مجردة من الكتاب.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (٢/ ٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٨١).

وقال في موضع آخر: «النية الخالصة، والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل»(١).

وكذلك في حادثة الإفك، وما رُميت به عائشة رضي الله عنها من قالة السوء، وهي غافلة بريئة، فخلَّد الله ذكرها، وأنزل براءتها في سورة تتلى إلى يوم القيامة.

ولذا يقول ابن أبي جمرة: «من كان صادق النية لا يقع إلا في خير، ولو قصد بالشر؛ فإن الله يصرفه عنه»(٢).

فليبشر بالخير ذلك الرجل صادق النية الذي فوجئ بالمكايد تُدبَّر له، وتُعْمل من خلفه وهو غافل بريء؛ بأن عاقبته نصر وتمكين، فلا تذهب نفسه حسرات؛ فالله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

يقول الرازي في الآية: «الأمور بعواقبها، ومن مَكر به غيرُه، ونفَّذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر؛ ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك»(٣).

وإن صدق النية لهو أعظم ما يستعان به في الإصلاح بين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٦٣).
(٢) فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٦٠).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٤٧).

فمن كان صادق النية في الإصلاح، فليبشر بأثره في الصلح بين المتخاصمين.

وبصدق النية ينال الفقير منزلة الغني المحسن؛ فقد روى أبو كبشة الأنماري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقّاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء**»(١)(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٤٢٢٨) وصححه الترمذي.

(٢) فإن قيل: ما الجواب عن ما أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٥٩٥) من حديث أبي هريرة، أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: «**وما ذاك؟**» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تسبِّحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة**» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»، فالجواب ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٣١) فقال: (يظهر أن الجواب وقع قبل أن يعلم النبي ﷺ أن متمني الشيء يكون شريكاً لفاعله في الأجر) ثم ذكر الحافظ حديث أبي كبشة آنف الذكر.

وقد بلغ من أثر صدق النية أن يموت الرجل على فراشه، فيدرك بصدق نيته منازل الشهداء، فقد روى سهل بن حنيف ﵁ قال: قال ﷺ: «**من سأل الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»(١).

ويحتاج الرجل مالاً؛ فيضطر إلى أن يستدين؛ فييسر الله قضاء دينه ما دام أنه صادق النية في الوفاء، عاقد العزم على الأداء، فقد روى أبو هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه**»(٢).

حتى ولو مات مديوناً فإن الله ـ سبحانه ـ ييسِّر من يقضي دينه، أو يتكفل عنه في الآخرة(٣).

وينام الرجلان في وقت واحد، ويقومان في وقت واحد، فيكتب لأحدهما أجر قيام ليلة، ويُحرم الآخر؛ وذلك لاختلاف نيتهما، فقد روى أبو الدرداء ﵁ قال: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتى أصبح، كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه ﷻ»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٩).
(٢) صحيح البخاري (٢٣٨٧).
(٣) ينظر: فتح الباري (٥/ ٥٤).
(٤) أخرجه النسائي (١٧٨٨) موقوفاً، وأخرجه هو ـ أيضاً ـ (١٧٨٧) وابن ماجه (١٣٤٤) مرفوعاً، ورجح الدارقطني في العلل الوجه الموقوف (٦/ ٢٠٦).

ويتصدق الرجل على محتاج، ثم يتبين له أنه غير محتاج؛ فيضيق صدره، فليبشر بأن صدقته مقبولة بإذن الله، إن كان صادقاً في نيته، متحرياً في أعطيته؛ فلقد ذكر الرسول ﷺ قصة رجل تصدق على سارق، وزانية، وغني، وهو لا يعلم عنهم، فأتي في منامه، فقيل له: أما صدقتك فقد تقبِّلت[1].

ومن المنامات التي يستأنس بها في هذا الباب ما ذكره الذهبي، أن عمرو بن الليث الصفار ـ وهو أحد الأمراء ـ رئي بعد موته، فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: أشرفت يوماً من جبل على جيوشي، فأعجبني كثرتهم، فتمنيت أنني كنت حضرت مع رسول الله ﷺ فنصرته وأعنته، فشكر الله لي، وغفر لي[2].

وإن صدق نيتك في نفع الناس، ومحبتك الخير لهم سبب عظيم في عود النفع عليك، ووصول الخير إليك؛ فالجزاء من جنس العمل، فمن أراد بالناس خيراً جاءته البركات تترى، وأعظم الله له أجراً.

فأمعن النظرَ في مقولة الإمام الشافعي الشهيرة حين قال: «وَدِدتُ أن الناس كلَّهم تعلَّموا هذا العلم، ولم يُنسب إليَّ منه شيء»[3].

---

(١) أخرجها النسائي (٢٥٢٣)، وأحمد (٨٢٨٢)، وأصلها أخرجه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/١٤٨).
(٣) المرجع السابق (١٠/٨٦)، وفتح الباري، لابن رجب (١/٤٣).

يتمنى رَحِمَهُ اللَّهُ أن الناس كلهم ينالون العلم الذي ناله، والخير الذي طاله، وأنه لا يَرِدُ له ذِكر، ولا يُنسب له فيه أمر!

إنها نفس بَرَّةٌ زكية؛ متجردة لله، بعيدة عن الحقد والأنانية، فماذا كان؟!

كان صدق نيته، وحسن قصده سبباً في انتشار مذهبه، وخلود اسمه إلى زماننا هذا؛ فهو أصغر الأئمة سنّاً؛ فقد توفي وعمره ٥٤ عاماً، وقد مضى على وفاته أكثرُ من ألفٍ ومائتي عام، ومذهبه الفقهي قد عبَر القرون والقارَّات، وما زال ينتسب إليه الملايين العظيمة من المسلمين!

إنها الرفعة التي لا تسامى، والشرف الذي لا يغالب.

والخلاصة أن صدق النية، وحسن القصد سبب للعطايا العظيمة، والبركات الجسيمة، فهنيئاً لصادق النية؛ إنه لذو حظ عظيم.